PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

سلسلة الدروس الدينية في العقائد الاسلامية

٤

معرفة العدل الالهي

استاذ ناصر مكارم الشيرازي

جعفر صادق الخليلي

Makārim Shīrāzī

سلسلة الدروس الدينية في العقائدا لاسلامية

القسم الرابع

العدل الألهي

مدرسة الامام علي بن ابي طالب
مؤسسة البعثة

(Arab)
BP166
.M342
1986
gism 4

سلسلة الدورس الدينية فى العقائد الاسلامية
القسم الرابع : العدل الألهي
الاستاذ ناصر مكارم الشيرازي
جعفر صادق الخليلي
قسم الاعلام الخارجي
الطبعةالاولى : ١٤٠٧هـ
ايران ـ طهران ـ شارع سمية ـ موسسة البعثة
تلفن ٨٢١١٥٩

[redacted]

مقدمة الناشر

ان الاصول العقائدية في البحوث التي تهم الجميع تتميز بخصوصية خاصة ، اذ ان لكل امرئ ، بموجب الادلة العقلية والفطرية، ميوله النفسية والمعنوية نحو هذا الاتجاه لذلك يكون من الضروري طرحها على المستوى العام بين الناس .

ثم ان المجتمعات الاسلامية التي تتمسك باصول عقائدها ،قد تواجه الكثير من المشكلات اذا ماجوبهت باصغر الشكوك والشبهات ،وذلك لعدم تأصل تلك العقائد في نفوسها تأصلا يستند على الاستدلال المنطقي في اثباتها .

اننا نؤمن بان اصول العقائد الاسلامية يجب ان تنشر

بمختلف لغات العالم وعلى مختلف الاصعدة والمستويات .

ان هذه مجموعة العقائد الخمس التي جاد بها قلم آية الله ناصر مكارم الشيرازي تمتاز بتلك الخصوصية الخاصة فهي مع استنادها على الاستدلال العقلي ،تتميز ببساطة سهلة تجعلها في متناول عامة الناس وخاصتهم .

اننا نتوجه الى الله بالشكر على ان وفقنا لتقديم الترجمة العربية لهذه الدورة العقائدية الى جيلنا الناطق بالعربية .

ونود بالمناسبة ان نحيط القارىء علما بان ترجمة هذه الدورة الى الانجليزية قد خرجت من المطبعة ،والعمل جار في الوقت نفسه لطبعها باللغات التركية الاسطنبولية والفرنسية والاسبانية وبالاوردية ، بعون الله تعالى ،راجين منه مزيدا من التوفيق .

قسم الاعلام الخارجي في مؤسسة البعثة

الدرس الاول

ماهو العدل

* لماذا اعتبر العدل ، من بين سائر صفات اللّه،جزء رئيسا من أصول الدين ؟
* الفرق بين " العدالة " و " المساواة " .

* * *

١ــ لماذا اختير العدل من بين سائر الصفات ؟

قبل الخوض في هذا البحث لابد من ان يتضح لنا:لماذا اعتبر العلماء العظام صفة العدالة ، التي هي واحدة من صفات اللّــــه ، " أصلاً " من " أصول الدين الخمسة " ؟

ان اللّه " عالم " و"قادر"و"عادل " و"حكيم"و"رحمان" و "رحيم"و"أزلي" و "أبدى" و"خالق" و"رزاق" ،فلماذا اختاروا "العدالة " دون سائر صفات اللّه لتكون أحد أصول الدين الخمسة؟

للاجابة عن هذا السؤال لابد من معرفة عدة نقاط :

١ـ ان للعدالة ،من بين سائر صفات اللّه ، أهمية خاصـــة

بحيث ان كثيراً من الصفات الاخرى يعود عليها ، لان " العدالة" بمعناها الواسع، هي وضع الامور في مواضعها ·وعلى ذلك فان صفات اخرى مثل " حكيم " و " رزاق " و" رحمان " وأمثالها تعتمد على العدالة في معانيها ·

٢ـ كما ان " المعاد " يستند على "العدل الالهي"، وكذلك ترتبط رسالة الانبياء ومسؤولية الأئمة بعدالة اللّه ايضا ·

٣ـ ظهر في صدر الاسلام خلاف بشأن مسألة عدالة اللّه ·فقد أنكر بعض المسلمين (وهم الأشاعرة) عدالة اللّه كلياً ،وقالوا : ان " العدالة " و" الظلم " لامعنى لهما بالنسبة للّه ،فكل عالم الوجود ملكه وله ، وكل مايفعله فهو العدالة بعينها · لقد أنكر هولاء حتى " الحسن " و" القبح " العقليين ، قائلين ان عقولنا لاتستطيع ان تدرك هاتين الصفتين مطلقتين ،بل انها لاتدرك حُسْنَ الحَسَن ولاقبح القبيح(وكثير غير هذه الاخطاء) ·

وفريق آخر من أهل السنة (وهم المعتزلة) ومعهم الشيعة، قالوا بعدالة اللّه وبأنه لايظلم ابدا ·

وللتمييز بين هذين الفريقين ، اطلقوا على الفريق الثاني اسم " العدليين " أو " العدلية " لانهم اعتبروا " العدل"عنوان مدرستهم واصلاً من أصول الدين ، ومنهم الشيعة ؛ وأطلقوا على الفريق الآخر اسم " غير العدليين " ·

ولكي يميز الشيعة انفسهم عن بقية" العدليين " اعتبروا الامامة اصلاً آخر من أصول الدين ·

وعليه ، اصبح " العدل " و " الامامة"من مميزات مذهب الشيعة الامامية ·

٤ـ بما ان فروع الدين ليست سوى اشعاعات اصول الدين ، وان اشعة عدالة اللّه شديدة التاثير في المجتمع البشري ،اصبحت

العدالة الاجتماعية من أهم اسس المجتمع الانساني . إن اختيار العدالة كأصل من أصول الدين إشارة الى إحياء العدل في المجتمعات البشرية ومكافحة كل انواع الظلم .

ومثلما كان توحيد ذات اللّه وصفاته وعبادته نوراً دعا للوحدة والاتحاد في المجتمع الانساني لتمتين وحدة الصفوف، كانت قيادة الانبياء والائمة مثلاً "للقيادة الحقة" في المجتمعات الانسانية. وعليه ،فان أصل عدالة اللّه السائدة في كل عالم الوجود، إشارة الى ضرورة تطبيق العدالة في المجتمع البشري على الأصعدة جميعها .

إن عالم الخليقة العظيم قائم على العدالة ، لذلك لايمكن أن يقوم مجتمع انساني بغير العدالة .

٢ ــ ماهي العدالة؟

للعدالة معان مختلفة :

أ ـ معنى العدالة العام والشامل هو، كما قلنا : وضع الامور في مواضعها . أي التوازن والتعادل . وهذا المعنى هو المهيمن على عالم الخليقة برمته ،على المنظومات الشمسية ،على الذرة، على بناء كيان الانسان وجميع الحيوان والنبات .وهذا هو المعنى الذي ورد في الحديث النبوي الشريف :

" بالعدل قامت السموات والارض ".

فمثلا ، لو اختل تعادل القوتين الجاذبة والدافعة في الكرة الأرضية ، وزدات احداها على الاخرى ، لانجذبت الارض نحو الشمس واحترقت وتلاشت ، أولخرجت عن مدارها وتلاشت في الفضاء الفسيح .

والعدالة هي إنك إن سقيت شجيرة الورد واشجار الاثمار فقد سكبت الماء في موضعه ، وهذا هو العدل بعينه ، وإن أنت

سقيت الاشواك والطفيليات ، فقد ارقت الماء في غير موضعه،وهذا الظلم بعينه .

ب - وثمة معنى آخر للعدل ، وهو " مراعاة حقوق الناس"، ويقابل " الظلم " وهو الاستئثار بحقوق الآخرين ، اوانتزاع حق شخص واعطائه لآخر لاحق له فيه ، اي المحاباة ، اي اعطاء بعض حقهم ،ومنعه عن بعض آخرين .

بديهي ان المعنى الثاني " خاص " والمعنى الاول " عام"، وان كلا معنيي " العدل " يصدقان بحق اللّه ، غير ان المعنى الثاني هوالمقصود في بحثنا هذا ، في اغلبه .

معنى " عدل " اللّه هو انه لايسلب احداً حقه ،ولايأخذه من بعض ليعطيه لبعض آخر ،ولاهو يجابي بين الاشخاص ،فهو عادل بكل معاني الكلمة .ولسوف نتعرف على دلائل عدالته في الدرس القادم .

ان اللّه منزه عن " الظلم " سواء أتمثل بأخذ حق احد ،أم إعطاء حق احد لآخر ، أم بالاجحاف والمحاباة .

انه لن يعاقب من يعمل الصالحات ،ولايثيب المسيء، ولايأخذ احداً بذنب احد ،ولايحرق الاخضر بجرم اليابس ابدا .

واذا كان جميع افراد مجتمع مامذنبين ، سوى شخص واحد ، فان اللّه يفصل حساب هذا الشخص عن الآخرين ،ولايضعه في العقاب في مصاف المذنبين .

أما مقولة " الاشاعرة " بان اللّه اذا ارسل الانبياء الى الجحيم ، والمذنبين الى الجنة ، لايكون ظالماً ،فهي مقولة جزاف، قبيحة ،مخجلة ولاأساس لها ، وإن كل شخص لم يغلف عقله التعصب والخرافات يشهد بقبح هذا القول .

ج - الفرق بين " المساواة " و " العدالة":

إن النقطة المهمة الاخرى التي لابد من الاشارة اليها في هذا البحث هي مايجرى احيانا من الخلط بين "المساواة" و "العدالة" على اعتبار ان العدالة هي تطبيق المساواة ،ولكن الأمر ليس كذلك

المساواة ليست شرطاً من شروط العدالة ،بل العدالة هي إعطاء كل حق لمستحقه وأخذ الاولويات بنظر الاعتبار .

فالعدالة بين تلاميذ صف واحد ، مثلا ، ليست في منح جميعهم درجات متساوية ،وليست العدالة بين عاملين في اعطائهما اجوراً متساوية . بل العدالة هي ان ينال كل تلميذ الدرجة التي تستحقها معلوماته ولياقته العلمية ،وان ينال كل عامل اجرته بحسب اهمية العمل الذي يؤديه .

والعدالة في عالم الطبيعة تدخل ضمن هذا المعنى الواسع ، فلو أن قلب حوت (البالن) الذي يزن طناً واحداً قد ساوى قلب عصفور لايكاد يزن اكثر من بضعة غرامات ،ماكان ذلك عدلاً ،ولو تساوت جذور شجرة ضخمة مع جذور نبتة صغيرة لماكان ذلك عدلاً بل لكان ظلماً فاضحاً .

فالعدالة ،اذن ، هي ان ينال كل كائن نصيبه بموجب ما يتطلبه استحقاقه واستعداده ولياقته .

* * *

فكر وأجب:

١- لماذا اعتبرت العدالة ،من بين سائر صفات الله، أصلاً من أصول الدين ؟

٢- من هم الأشاعرة ؟ ماذا تعرف عن معتقداتهم ؟

٣- ماهي تاثيرات الاعتقاد بالعدل الالهي على المجتمع الانساني ؟

٤- ماهي معاني العدالة ؟ اشرحها .

٥ـ هل العدالة تعني المساواة ؟

* * *

الدرس الثاني

دلائل عدالة الله

١ــ الحسن والقبح العقليان :

لابد لنا مبدئياً ان نعرف ان عقلنا يدرك الى حد كبير " حسن " الاشياء و " قبحها " وهذا هو مايطلق عليه العلماء اسم الحسن والقبح العقليين .

فمثلا ، نحن نعلم إن العدل والاحسان أمران حسنان، وإن الظلم والبخل أمران قبيحان ،وحتى قبل ان يتحدث الدين عن هذه الأمور فاننا نعرفها ،على الرغم من وجود أمور اخرى لاتكفي معلوماتنا لادراكها ،بل لابد لنا ان نستعين بارشاد الانبياء والقادة الالهيين .

ولذلك اذا ماأنكر فريق الاشاعرة المسلمون الحسن والقبح العقليين ، وقالوا بأن طريق معرفتهما ،حتى في حالات واضحة مثل العدل والظلم ،هو حكم الشرع والدين ، فانماهم على خطأ مبين .

وذلك لأن عقلنا اذا لم يكن قادراً على ادراك الحسن والقبح فكيف يكون لنا ان نعلم بان الله لايمنح الكاذب القدرة على الإتيان بمعجزة ؟ لكننا اذا ادركنا ان الكذب قبح ،ويستحيل صدوره عن الله ،ادركنا ايضا ان وعد الله حق ، وقوله صدق ،فلا يمكن ان يؤيد الكذب بأن يمنح الكاذب القدرة على القيام بمعجزة.

هنا يمكن الاعتماد على ماورد في الشرع والدين ونستنتج من هذا ان الاعتقاد بالحسن والقبح العقليين أمر ديني .

* * *

نعود الآن الى دلائل العدالة الالهية .ولادراك هذه الحقيقة يجب ان نعرف :

٢ــ ماهو مصدر الظلم؟

مصدر الظلم يمكن ان يكون أحد الأمور التالية :

أ ـ الجهل : قد نجد ظالماً لايدرى انه يظلم فعلا ، لايعلم انه يدوس بقدمه حقوق الآخرين . انه جاهل بما يفعل .

ب ـ الحاجة : قد يطمع المرء في مايملكه الآخرون ، فيوسوس له الشيطان ان يستحوذ عليها ،ولولا الحاجة لما كان هناك مايحمله على الظلم .

ج ـ الانانية والحقد والانتقام: يحدث احيانا ان لاتكون الاسباب المذكورة سابقاً هي الدافع على الظلم ،بل يكون السبب هوا لأنانية اوالحقد اوحب الانتقام ،فيعتدي على حقوق الآخرين . اوقد يكون السبب هو حب الاحتكار .

د ـ العجز والضعف : يحدث احيانا ان لايكون المرء راغباً في التقصير بحق الآخرين ،ولكنه لاقدرة له على الامتناع عن ذلك.

فيرتكب الظلم .

غير ان هذه الصفات القبيحة والنقائص لاوجود لها في ذات اللّه المقدسة ، لانه عالم بكل شيء، وغني عن كل شيء، وقادر على كل شيء،ورحيم بالعالمين رؤوف ،فلاحاجة له بالظلم .

ان اللّه لامتناهي الوجود ، ولاتحد كماله حدود ،ولايصدر عنه سوى الخير والعدل والرأفة والرحمة . ولكنه اذ يعاقب المسيئين فذلك بسبب اعمالهم،كالذين يستعملون المواد المخدرة اويشربون المشروبات الكحولية،فيصابون بمختلف الامراض القاتلة نتيجة لذلك .

يقول القرآن المجيد :

" هل تجزون إلّاماكنتم تعملون" .

(سورة النمل ،الآية٩٠)

* * *

٣ــ القرآن وعدالة الله:

يولي القرآن الكريم هذه المسألة اهتماماً كبيراً . إنه في احد المواضع يقول :

" إن اللّه لايظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون " .

(سورة يونس، الآية ٤٤)

وفي موضع آخر يقول :

" ان اللّه لايظلم مثقال ذرة "

(سورة النساء ،الآية ٤٠)

وفي موضع الحساب والجزاء يوم القيامة يقول :

" ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلاتظلم نفس شيئا " .

(سورة الانبياء ، الاية ٤٧)

(بديهي ان القصد من الموازين هنا هو وسائل القياس ، لا الموازين الاعتيادية) .

٤ــ الدعوة الى العدل:

قلنا إن صفات الانسان ينبغي ان تكون انعكاساً عن صفات الله ، بحيث تنعكس صفات الله على المجتمع الانساني برمته . وبناء على ذلك فان القرآن ، بقدر توكيده العدالة الالهية ، يؤكد ايضاً سيادة العدل في المجتمع وفي كل فرد فيه . كثيرا مايشير القرآن الى الظلم باعتباره سبب فناء المجتمعات البشرية ، ويرى عاقبة الظالمين من أفظع العواقب .

في معرض بيان مصائر الاقوام السالفة يطلب القرآن من الناس ان يعتبروا بتلك الاقوام وكيف انها بسبب ظلمها وفسادها نزل عليها العذاب الالهي وقضي عليها ؛ فيدعوهم الى ان يتجنبوا مصيراً كمصائر تلك الاقوام .

يصرح القرآن باحد مبادئه الرئيسة فيقول :

ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي" .

(سورة النحل ، الآية ٩٠)

من اللافت للنظر انه مثلما ان الظلم عمل قبيح ، فان تقبل الظلم والخضوع له عمل خطأ ايضا في نظر الاسلام ، كما جاء في الآية ٢٧٩ من سورة البقرة :" لاتظلمون ولاتُظلمون " .

ان الاستسلام للظالمين يعني القبول بالظلم ونشره واعانة

الظالم عليه .

* * *

فكر وأجب:

١- هل يستطيع عقلنا ان يدرك الحسن والقبح بدون تدخل الشرع ؟

٢- ماهو مصدر الظلم ؟ ماالدليل العقلي على عدالة اللّه ؟

٣- ماالذي يقوله القرآن بشأن عدالة اللّه وتنزيهه عن الظلم ؟

٤- ماهو واجب الانسان في قبال العدل والظلم ؟

٥- هل الاستسلام للظلم والخضوع له إثم ايضاً ؟

* * *

الدرس الثالث

فلسفة الكوارث والآفات

منذ القديم كان فريق من الجهال يعترضون على عدالة اللّه، ويوردون حالات يعتقدون انها لاتأتلف مع عدالة اللّه ، بل انهم لم يعتبروها أدلة تنفي العدالة عن اللّه فحسب ، بل قالوا انها دليل على عدم وجود اللّه ذاته !

من تلك الحالات التي يستدلون بها على ذلك هي "الطوفانات" و "الزلازل" والكوارث العامة الاخرى .وكذلك "التفاضل" الموجود بين الافراد ،ووجود الآفات والامراض التي تصيب الانسان والنبات وسائر الكائنات في عالم الوجود .

وقد يرد هذا البحث ضمن موضوع معرفة اللّه في قبال الماديين، وقد يرد في بحث اللّه عموماً ، ونورده نحن هنا .ولكي ندلك على مدى خطل هذه الافكار عند التحليل الدقيق ، لابد ان يكون لنا بحث مسهب بهذا الشأن وان ندرس الامور التالية بدقة :

١ــ الحكم النسبي وقلة المعرفة:

اننا نستند عادة في اصدار احكامنا وتمييز المصاديق على

علائقنا با لأشياء ،كقولنا ان الشي،الفلاني قريب اوبعيد ،بالنسبة لموقعنا نحن ، اونقول ان فلاناً ضعيف اوقوى بالقياس الى حالتنا النفسية اوالجسمية.كذلك هي حال اغلب الناس عند اصدار احكامهم على القضايا الخاصة بالخير والشر والكوارث وا لآفات .

فمثلا ،إذانزل المطر في منطقة ،فليس يعنينا تأثيره في المجموع العام ، بل لاتتعدى نظرننا محيط حياتنا وبيتنا ومزرعتنا ، اومدينتنا في الحدا لاقصى ،فاذا كان لهذا المطر تأثير ايجابي قلنا انه نعمة من اللّه ،واذا كان تاثيره سلبيا ،اطلقنا عليه اسم "البلاء" .

عندما يهدمون عمارة توشك على ا لانهيار لكي يعيدوا بناءها ، ولايكون نصيبنا من ذلك سوى الغبار الذى يدخل خياشيمنا اثناء مرورنا بالمكان،نقول: ماأسوا هذا !على الرغم من ان المستقبل القريب سوف يشهد بناء مستشفى حديث على انقاض العمارة المتهدمة يستفيد منه الناس،اوعلى الرغم من ان لهطول المطر في المثال السابق تاثيراً مفيداً من حيث المجموع .

اننا في احكامنا السطحية المألوفة نعتبر لسعة الحية شرا ، بغير ان نعلم ان هذه اللسعة ومافيها من سم انما هي وسيلة دفاع في هذا الحيوان ،وان هذا السم نفسه يصنع منه دواء شاف قد ينقذ حياة ا لآلاف من بني البشر .

وعليه ،اذا كان علينا ان لانقع ضحايا للخطأ ،فلا بدلنا ان نلقي نظرة على معلوماتنا المحدودة لكيلا نقيم احكامنا على مجرد العلائق التي تربط ا لاشياء بنا ، وانما ينبغي ان ننظر الى ا لأمر من جميع الجوانب بحيث تكون احكامنا جامعة شاملة .

ان جميع حوادث العالم ، من حيث ا لاساس ،اشبه بسلسلة مترابطة الحلقات . ان العاصفة التي تهبّ اليوم في مدينتنا ، وا لامطار الغزيرة التي تهطل،حلقات في هذه السلسلة المديدة التي

ترتبط بحوادث تجري في مناطق اخرى، وكذلك ترتبط بحوادث جرت في " الماضي " واخرى سوف تجرى في " المستقبل " .

وعليه ،فان وضع الاصبع على نقطة صغيرة واصدار حكم حاسم بشأنها بعيد عن العقل والمنطق .

ان مايفعله الخلق " شر مطلق " ،ولكن اذا كان الامر من جهة خيراً ومن جهة شراً ، مع الغلبة للخير - كالعملية الجراحية المؤلمة من جهة والمفيدة من جهات اخرى - يعتبر خيراً نسبيا .

وللتوضيح نعود الى مثال الزلزلة: صحيح انها تؤدي الى الدمار في مكان معين ، ولكننا اذا اخذنا بنظر الاعتبار علائق هذه الظاهرة المتسلسلة بأمور اخرى في الطبيعة لتغير حكمنا .

هل الزلزلة ترتبط بحرارة باطن الارض والابخرة المتكونة فيه ؟ أم انها ترتبط بقوة جاذبية القمر التي تجذب ماعلى الارض من جوامد نحوه ؟ أم انها ترتبط بكليهما ؟ إن للعلماء نظريات مختلفة بهذا الخصوص .

ولكن مهما يكن السبب ،فلابد لنا ان ننظر الى الآثار الاخرى لهذه الظاهرة . من ذلك ،مثلا، يجب ان نعرف تأثير حرارة باطن الارض في تكوين منابع النفط الذي يعتبر من اهم مصادر الطاقة في عصرنا ،وكذلك في تكوين الفحم الحجري وامثالهما . وعليه فان حرارة باطن الارض خير نسبي .

كذلك الامر مع المد والجزر الحاصلين بتاثير جاذبية القمر لمياه البحار ، إذ أن لهما اهمية كبرى في حركة مياه البحار والابقاء على حياة المخلوقات البحرية ،وكذلك في ارواء السواحل الجافة في المناطق التي تصب فيها المياه العذبة في البحر . هذا ايضاً خير نسبي .

من هذا ندرك ان احكامنا النسبية ومعلوماتنا المحدودة هي

التي تظهر امثال هذه الحوادث بصورة نقاط مظلمة على صفحة الخليقة . وكلما تعمقنا في التأمل والتفكير في العلائق التي تربط هذه الحوادث ببعض ادركنا اهميتها .

يقول لنا القرآن المجيد :

" وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " .

(السورة الاسراء ، الآية ٨٥)

فلاينبغي لنا بعلمنا القليل هذا ان نتعجل اصدار الاحكام.

٢ــ الحوادث المنغصة والتحذيرات:

اننا جميعاً نعرف اشخاصاً عندما غرقوا في نعمة ركبهم " الغرور " و"حب الذات" فنسوا ،وهم في هذه الحالة ، الكثير من واجباتهم الانسانية .

كما اننا جميعاً نعرف اشخاصاً اذا ماكان بحر حياتهم هادئاً وكانوا متنعمين بالراحة والدعة ،انتابتهم حالة من " السبات والغفلة " ، وهي حالة ان دامت عندهم ادت الى تعاستهم وشقائهم.

لاشك ان بعضاً من الحوادث المنغصة هدفه وضع حد لتلك الحالة من الغرور والى ايقاظ الانسان من سبات غفلته .

لابد انكم سمعتم بان سواق السيارات المجربين يشكون من الطرق الممهدة الصافية المستقيمة الخالية من كل اعوجاج وارتفاع وانخفاض ، قائلين ان هذه الطرق خطرة ،وذلك لان رتابتها تحمل السائق على الشعور بالنعاس ،وفي هذه الحالة يكمن الخطر .

لذلك نجد هذه الطرق في بعض البلدان وقد اصطنعوا لها الانحناءات والمرتفعات والمنخفضات للحيولة دون وقوع السواق في مثل تلك الحالات .

ان خطر سير حياة الانسان لاتختلف عن ذلك . فاذا خلت الحياة من المنعطفات والالتواءات والمنخفضات ، واذا لم

يعتورها احياناً بعض المنغصات ،استولت على الانسان تلك الحالة من نسيان الله والغفلة عن ذكره وعن القيام بالواجبات الملقاة على عاتقه .

اننا ، بالطبع ، لانقول ان على الانسان ان يصطنع لنفسه الحوادث المنغصة وان يستقبل الاحزان ،وذلك لان امثال هذه الحوادث كانت دائما موجودة في حياة الانسان.ولكننا نريد التذكير بأن فلسفة جانب من هذه الحوادث هي الوقوف بوجه الغرور والغفلة والنسيان التي هي اعدى اعداء سعادته . نكرر القول بأن هذه هي فلسفة بعض تلك الحوادث، ، لاكلها ،اذ ان هناك حوادث اخرى سوف نتحدث عنها ان شاء الله .

يقول كتابنا السماوي العظيم .

" فاخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون"
(سورة الانعام ؛الآية ٤٣)

فكر واجب :

١- من هم الذين طرحوا الكوارث والآفات في البحوث العقائدية ؟

٢- هات نماذج للكوارث والآفات ،وهل صادفتك في حياتك؟

٣- ماذا نقصد بالحكم النسبي والمطلق ،وماهو " الشر المطلق " و" الخير النسبي "؟

٤- هل الأعاصير والزلازل مضرة دائماً ؟

٥- كيف يمكن ان تكون لمنغصات الحياة آثار ايجابية في نفسية الانسان ؟

* * *

الدرس الرابع

حكمة المنغصات في حياة الانسان

قلنا ان فريقاً من المعارضين العيّابين تناولوا الحوادث المنغصة وظهور الآفات والمشكلات والاحباطات التي تصيب الانسان في حياته ، وجعلوها ذريعة لانكار عدالة اللّه ، بل حتى انكار وجود اللّه ذاته .

في البحث السابق حللنا بعضاً من تلك الحوادث واشرنا الى فلسفتين اثنتين لها . والآن نواصل البحث مرة اخرى .

٣ــ الانسان بترى في أحضان المشكلات:

نكرر مرة اخرى ان الانسان ينبغي الّا يخلق بيده المشكلات والمنغصات لنفسه . ولكن كثيراً مايحدث ان تكون الحوادث الصعبة والمنغصة سببا في تقوية ارادتنا وزيادة قدرتنا على التحمل، كالفولاذ الذي يدخلونه النار الحامية ليسقوه فيزداد قوة وصلابة. اننا ندخل أتون هذه الحوادث لنخرج أكثر تجربة وأصلب عوداً .

الحرب حدث سيء، ولكن رب حرب ضروس طويلة الامد كشفت عن مواهب الشعب الكامنة ، وأبدلت تشتته وحدة ،وأسرعت في

جبران نواقصه .

يقول احد المؤرخين الغربيين المعروفين :

" ان كل حضارة لامعة ظهرت على امتداد التاريخ في مكان ما ، ظهرت بسبب تعرض ذلك الشعب لهجوم دولة عظمى خارجية ، فأيقظت قواه الكامنة وحشدتها ".

بديهي ان تاثر جميع الاشخاص والمجتمعات بحوادث الحياة المرة ليس بمستوى واحد ، فبعض ينتابهم اليأس ويستولي عليهم الضعف والتشاؤم ، فيكون تأثرهم سلبياً ، وبعض آخر لهم الاستعداد والاهلية ليتفاعلوا مع تلك الحوادث تفاعلاً ايجابياً ، فيكون ذلك سبباً في تحريك مواهبهم ومؤهلاتهم فتفور وتغلي وتسرع لاصلاح نقاط الضعف فيهم .

ولكن بما ان معظم الناس يصدرون احكاما سطحية في مثل هذه الحالات ، فانهم يرون المنغصات ويتذوقون مرارتها ، دون الالتفات الى آثارها الايجابية البناءة .

اننا لاندّعي بأن جميع الحوادث المرة لها مثل هذه التأثيرات في الانسان ، ولكن لقسم منها ، في الاقل ، مثل هذه التأثيرات .

لو انك درست سير حياة نوابغ العالم للاحظت انهم في غالبيتهم قد كبروا وترعرعوا في خضم المشكلات والمصاعب . انك قلما تجد بين المتنعمين المرفهين من أظهر شيئاً من النبوغ في حياته ووصل الى مراكز رفيعة . ان القادة العسكريين العظام هم اولئك الذين شهدوا حروباً طويلة صعبة . والعقول الاقتصادية المتفكرة هي التي صارعت تقلبات الاسواق والازمات الاقتصادية في العالم . والسياسيون العظام الاقوياء هم الذين استطاعوا منازلة المشكلات السياسية العويصة . باختصار ، ان المشكلات والآلام هي

التي تربى الانسان في احضانها . نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى :

" فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا " .

(سورة النساء ، الاية ١٩)

٤ـ المشكلات سبب العودة الى الله:

قرأنا في الدروس السابقة ان لكل جزء من اجزاء وجودنا هدفا معينا . فالعين خلقت لهدف ، والاذن خلقت لهدف آخر ، وكذلك القلب والدماغ والاعصاب خلقت ولكل منها هدف ، وحتى خطوط رؤوس اصابعنا لها في خلقها هدف وحكمة .

اذن ، كيف يمكن ان يكون كل وجودنا بدون هدف ولاحكمة؟

كذلك قرأنا في الدروس السابقة ان الهدف ليس سوى بلوغ الانسان التكامل من جميع الوجوه .

لاشك في ان الوصول الى هذا التكامل يتطلب برامج تعليمية وتربوية عميقة تستغرق كل كيان الانسان . لذلك فان الله سبحانه وتعالى ، فضلا عن كونه قد وهب الانسان فطرته التوحيدية الطاهرة، ارسل الانبياء العظام والكتب السماوية للإضطلاع بمهمة قيادة الانسان في مسيرته التكاملية .

وفي غضون ذلك ، يريه الله احياناً انعكاسات ذنوبه ويواجهه ببعض المشكلات والآلام في حياته ، للوصول به الى التكامل عن طريق انكشاف عواقب اعماله القبيحة المشؤومة ، فيندم ويعود بتوجهه الى الله . في هذه الحالة يكون بعض المشكلات والحوادث المؤلمة رحمة من الله ونعمة . وفي هذا يقول القرآن الكريم :

" ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي

الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ".
(سورة الروم ، الآية ٤١)

فاذا اخذنا بنظر الاعتبار هذا الذي قلناه ،تكون نظرتنا الى الحوادث المؤلمة باعتبارها " شراً وبلاء" وانها تخالف العدالة الالهية ،نظرة بعيدة كل البعد عن المنطق والدليل العقلي،إذ اننا كلما ازددنا تعمقاً في هذا الموضوع ازداد امامنا وضوح مافيه من حكمة وماورا ه من فلسفة .

* * *

فكر واجب :

١ـ ماالهدف من خلقنا ؟ وكيف نصل اليه ؟

٢ـ كيف يزداد الانسان خبرة وصلابة عن طريق مواجهة المشكلات ومقاومتها ؟

٣ـ هل سمعتم اوقراتم عن اشخاص قويت شكيمتهم واشتدت عزائمهم وبلغوا مناصب مهمة،بسبب احتمالهم المشكلات القاسية؟ احكوا لنا ماتعرفونه عنهم ؟

٤ـ ماالذي يقوله القرآن بشأن نتائج ذنوبنا ؟

٥ـ من يتوصل الى نتائج ايجابية من الحوادث المؤلمة؟ومن الذي يصل منها الى نتائج سلبية ؟

* * *

الدرس الخامس

عودة الى الحكمة في الآفات والكوارث

لما كانت قضية الآفات والكوارث والحوادث المؤلمة تعتبر مشكلة مستعصية بوجه دارسي مسألة معرفة الله والتوحيد، فلابد لنا من العودة مرة أخرى لبحث هذه القضية وتحليلها ومواصلة ما أوردناه بخصوص الحكمة في بعض الافات والمصاعب .

٥ـ التقلبات والمشكلات تهب الحياة روحاً وحيوية:

لعل من الصعب على الكثيرين ان يدركوا ان النعم والعطايا اذا استمرت على وتيرة واحدة تفقد قيمتها واهميتها .

لقد ثبت اليوم علمياً اننا اذا وضعنا جسماً في حجرة مدورة ملساء تماماً وسلطنا عليه نوراً قوياً من جميع الجهات لما امكنت رؤية ذلك الجسم ، لان وجود الظل الممتد من الجسم بسبب الضوء هو الذي يعين لنا ابعاد الجسم ويفصله عما يحيط به ، وعندئذ نستطيع ان نراه .

كذلك هي حال عطاءات الحياة ، فهي لايمكن ان ترى بغير الظلال الخفيفة والثقيلة . ولولا المرض في بعض فترات الحياة لما

عرفنا لذة السلامة . اننا على اثر ليلة من الحمى الشديدة المحرقة والصداع القاتل الاليم، يكون احساسنا بطعم السلامة صباحا بعد انقطاع الحمى وزوال الصداع من اللذة والحلاوة بحيث اننا كلما تذكرنا تلك الليلة العصيبة ادركنا قيمة درة السلامة الثمينة التي اعطيناها.

إن الحياة نفسها ، حتى المسرفة في الرفاهية والرخاء ، تكون مملة وعديمة الروح وقاتلة ، لو انها مضت على وتيرة واحدة. كثيراً ما لوحظ ان بعض الناس يعانون الألم والعذاب بسبب رتابة حياتهم المرفهة الخالية من كل منغص وقلق الى درجة ان بعضهم يقدم على الانتحار ، أو لا يكف عن الشكوى من حياته .

إنك لن تجد مهندساً معمارياً يبني جدران غرفة للجلوس مثلما يبني جدران السجن رتيبة مسطحة ، بل انه يضيف على تلك الجدران من الانعطافات والانحناءات المناسبة ليخرجها من الرتابة.

لماذا يتميز عالم الطبيعة بكل هذا الجمال ؟

لماذا تثير فينا الغابات على سفوح الجبال، والانهار المنسابة بين الاشجار تلتوي في المنحنيات كالأفعى ، هذا الشعور بالبهجة؟

ان احد الاجوبة هو : لأنها ليست رتيبة .

ان نظام " النور " و" الظلام" ، وتعاقب الليل والنهار الذي يشير اليه القرآن في عدد من آياته ، من اهم آثاره كسر رتابة الحياة الانسانية ، اذ لو ظلت الشمس تسطع من مكان واحد في السماء على الكرة الأرضية ، بغيران تغير موضعاً ولا ان تخلي مكانها لاستنار الليل الذهبية ، وبصرف النظر عن المشكلات الاخرى ، لانتاب البشر التعب والملل .

فعلى هذا الاعتبار لامندوحة لنا من الاعتراف بان قسماً ، في الاقل ، من حوادث الحياة المؤلمة لها تاثيرها في اضفاء الحيوية على الحياة ، فتجعلها حلوة يمكن تحملها ، وتبرز نعمها وقيمها ،

وتتيح للانسان الفرصة لكي يستفيد مما وهبه الله باقصى مايستطيع.

٦ــ المشكلات المصطنعة:

النقطة الاخرى التي نرى ضرورة الاشارة اليها في ختام هذا البحث هو ان كثيراً من الناس يخطئون في معرفة علل هذه الحوادث المنغصة والصعاب ،فيضعون الظلم الذي يرتكبه الظالمون على حساب عدم عدالة الخليقة .

يقولون مثلا : لماذا تكثر الاحجار في طريق الأعرج؟ لماذا تكون ضحايا الزلازل في المدن أقل ماهي في القرى والارياف؟ فأي عدالة هذه ؟ اذا كان لابد من توزيع كارثة ماعلى الناس،فلماذا لاتتوزع بالتساوي ؟ لماذا يتوجه نصل الحوادث الحاد الى المستضعفين دائماً ؟ لماذا تنتشر الامراض الوبائية بين هؤلاء أكثر من انتشارها بين غيرهم ؟

هؤلاء لايدركون ان هذه الامور لاعلاقة لها بعالم الخليقة وبعدالة الله،بل هي من نتائج ظلم الانسان لاخيه الانسان واستعماره واستغلاله .

لو لم يكن القرويون من ضحايا ظلم المدنيين ويعيشون في الفقر والحرمان بسبب ذلك ،بل كانوا قادرين على تشييد دورهم بالمتانة التي يشيد بها المدنيون دورهم في المدينة ،لما وقعت اكثرية ضحايا الزلازل في القرية .

ولكن عندما لايكون بمقدورهم ان يبنوا دورهم إلا بالطين اوبالحجر والاخشاب ،دون ان تصل ايديهم الى السمنت والحديد، بل يضعون كتل الطين اوالحجر في صفوف بعضاً فوق بعض ، فلاشك انها ستكون عرضة للانهيار عند هبوب أية ريح اوأية زلزلة خفيفة،وفي هذه الحالة لايمكن ان نتوقع مصيراً افضل لهم .ولكن ماعلاقة هذا بعدالة الله ؟

إننا لايجوز لنا ان نعترض قائلين : ان اللّه قد اعطى بعض الناس مئة نعمة ونعمة ،واجلس آخرين على تراب الذلة ،فذاك يسكن في قصر منيف ، وهذا في كوخ ضعيف !

هذه الانتقادات ينبغي ان توجه الى الوضع الاجتماعي الذي فقد توازنه واختل نظامة وسار في اتجاه غلط .يجب النهوض لوضع حد للظلم الاجتماعي وفقدان العدالة في المجتمع ،وللقضاء على الفقر والحرمان . و لإعادة حقوق المستضعفين لاصحابها .لكيلا تحدث هذه الظواهر .

لو ان جميع طبقات الشعب نالوا الغذاء الكافي والعلاج الطبي اللازم ، لاستطاعوا جميعا ضمان صحتهم ومقاومة الامراض.

ولكن عندما تكون الحالة الاجتماعية في نظام اجتماعي غلطا ، فيوفر الحكم عليه لطبقة من الطبقات كل الامكانات بحيث ان كلابها وقططها تحظى بالعناية الطبية وبالعلاج والدواء ،بينما لايتوفر لطبقة اخرى حتى الحد الادنى البدائي من العناية الصحية للاهتمام بمواليدها الجدد ،فان نسبة الوفيات بين افرادها ستكون حتما مرتفعة ويرى الانسان الكثير من تلك المشاهد المؤلمة.

ففي امثال هذه الحالات ،بدلا من توجيه النقد الى افعال اللّه ،علينا ان نوجهه الى افعالنا :

علينا ان نقول للظالم : لاتظلم :

وعلينا ان نقول للمظلوم : لاتخضع للظلم !

وعلينا ان نسعى لكي ينال جميع افراد مجتمع ما الحد الادنى، في الاقل، من العناية الصحية والعلاجية والغذائية، ومن السكنى والثقافة والتعليم والتربية .

لذلك ليس لنا ان نلقي بتبعة ذنوبنا وآثامنا على عاتق نظام الخليقة . متى فرض اللّه تعالى علينا حياة كهذه ؟ اين أمرنا بمثل

هذا النظام ؟

صحيح ان الله قد خلقنا احراراً ، لان الحرية هي اساس التكامل والتقدم ، ولكننا نحن الذين نسيء استغلال هذه الحرية ونستسيغ انزال الظلم بالآخرين ، فتظهر نتائج هذا الظلم بصورة اضطرابات اجتماعية .

ولكن الذي يؤسف له ان يأخذ هذا الخطأ بخناق جماعات كثيرة من الناس ، حتى شوهدت آثار ذلك في شعر بعض الشعراء المعروفين .

يقول الله في كتابه المجيد :

" ان الله لايظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون" .

" سورة يونس، الآية ٤٤)

وهكذا نصل الى نهاية بحثنا في فلسفة الآفات والكوارث ، على الرغم من الكثير الذي يمكن ان يقال في هذا الموضوع ، الا ان الذي قلناه يكفي لهذا البحث المكثف القصير .

* * *

فكر وأجب :

١ـ لماذا اجرينا البحث في فلسفة الآفات والكوارث على امتداد ثلاثة دروس ؟

٢ـ ما الاثر السيء الذي تتركه الحياة الرتيبة ؟ هل سبق لك ان رأيت شخصا يتألم من حياته المرفهة ؟

٣ـ ماذا تعرف عن فلسفة النور والظلام في عالم الخلق ؟

٤ـ هل سبب مصائب المجتمع هو نظام الخليقة ، أم ان لنا يدا في بعضها ايضا ؟

٥ـ هل هناك وسيلة صحيحة للقضاء على المشكلات الاجتماعية ؟

ماهو واجبنا نحو المستضعفين ؟

* * *

الدرس السادس

الجبر والتفويض

من المسائل التي لها علاقة بالعدل الالهي هي مسألة الجبر والتفويض (اوالجبر والاختيار) .

يرى الجبريون أن الانسان في أعماله وأقوله وسلوكه ليس مختارا وأن حركات أعضائه أشبه بالحركات الجبرية في أقسام جهاز من الأجهزة الآلية .

هذه الفكرة تثير في الذهن هذا السؤال : ترى كيف تنسجم هذه الفكرة مع الاعتقاد بالعدل الالهي؟ولعل هذه هي الفكرة التي حدت بالأشاعرة ـ الذين سبق أن قلنا إنهم ينكرون الحسن والقبح العقليين ـ الى القبول بفكرة الجبريين عن انكار عدالة الله ،إذان مع القبول بفكرة الجبريين لايعود هناك للعدالة الالهية اي مفهوم.

ولتوضيح هذا الأمر لابد من التطرق بدقة الى عدة من المواضيع:

١ــ مصدر الاعتقاد بالجبرية:

كل شخص يدرك في قرارة نفسه أنه حر في اتخاذ مايشاء من

قرارات . فمثلا يقرر أن يقدم عوناً مادياً لصديقه الفلاني ،أو لايقدم له شيئا ،أوأنه عندما يكون عطشان ويرى الماء امامه ،له الحرية في أن يشرب أو لايشرب . أوأن فلاناً قد أساء اليه ،فله أن يغفر له أو لا يغفر.إن كل شخص يميز بين اليد التي ترتعش بسبب الشيخوخة، واليد التي تتحرك وفق إرادة صاحبها .

إذن ،فاذا كانت مسألة حرية الارادة شعور عام في الانسان، لماذا يتوجه نفر من الناس الى المدرسة الجبرية ؟

بديهي إن لذلك أسباباً متعددة ،نورد لكم هنا واحداً منها : يلاحظ الانسان ان للمحيط تاثيراً في الافراد ،وكذلك التربية ، والتلقين ، والاعلام ، والثقافة الاجتماعية .كل هذه تؤثر في فكر الانسان وروحه . كما أن الحالة الاقتصادية تكون احياناً باعثا على سلوك معين في الانسان .ولايمكن ايضاً إغفال العامل الوراثي .

هذه الظروف بمجموعها تجعل الانسان يظن أن لاخيار له فيما يفعل . وإنّما هي العوامل الذاتية من الداخل ومن الخارج تضع يداً بيد وتحملنا على القيام ببعض الاعمال التي ربما لم نكن لنقدم عليها لولا تلك العوامل .

هذه أمور يمكن ان توصف بأنها مما يفرضها المحيط أوالظروف الاقتصادية أوالتعليم والتربية أوالوراثة ،وهي من العوامل المهمة التي تدفع بالفلاسفة نحو الجبرية .

٢ــ النقطة الرئيسية في خطأ الجبريين:

إن النقطة الرئيسة التي يغفل عنها هؤلاء هي أن القضية ليست قضية " الدوافع " و " العلل الناقصة" ،بل هي قضية " العلة التامة" وبعبارة اخرى، فمن أحد ينكر تاثير"المحيط"و"الثقافة" و"العامل الاقتصادي " في تفكير الانسان وافعاله .ولكن القضية هي إننا مع كل تلك العوامل نظل قادرين على اتخاذ القرار بغير إجبار ،

بل بمحض اختيارنا .

إننا ندرك بكل جلاء أننا حتى في محيط طاغوتي غلط ، مثل النظام الطاغوتي الشاهنشاهي (في ايران) سابقاً ، حيث توفرت كل وسائل الانحرافات، لم نكن مجبرين على الانحراف، وفي ذلك المحيط وتلك الثقافة كنا نستطيع أن لانرتشي ، وأن لانرتاد مواخير الفساد، وأن لانحيا حياة متحللة .

لذلك علينا أن نفصل بين " الظروف " و" العلة التامة". ولهذا كثيرا مانرى اشخاصاً ترعرعوا في محيط عائلي مرفه ، أو في محيط اجتماعي منحط ، أو انهم ورثوا موروثات سيئة، ومع ذلك فانهم فصلوا طريقهم عن طريق الآخرين ، بل ثار بعضهم حتى ضد المحيط الذي عاشوا فيه. فلو كان الانسان ابن محيطه وثقافة زمانه وإعلام عصره ، لكان على الجميع ان يخضعوا لذلك المحيط، ولما كانت هناك أية ثورة ضد المحيط في محاولة لتغييره .

يتضح من كل هذا أن العوامل المذكورة ليست عوامل مصيرية حاسمة، بل هي عوامل ممهدة، فالمصير الأصل هو الذي يصنعه الانسان بارادته وقراره، وهذا أشبه مايكون بحالنا في عزمنا على الصيام في صيف قائظ حارق ، فان كل ذرة في كياننا تطلب الماء بالحاح، ولكننا إطاعة لأمر الله ، نتغاضى عن كل ذلك ونستمر في صيامنا ، ولكن قد يكون هناك من يضعف أمام العطش فلايصوم .

الخلاصة هي إن وراء جميع العوامل والدوافع عاملاً مصيرياً اسمه حرية الانسان في اتخاذ قراره .

٣ــ العامل الاجتماعي والسياسي في المذهب الجبري:

الحقيقة هي إن مسألة "الجبر والتفويض" قد أسيء استعمالها إساءة بالغة على امتداد التاريخ ، واستطاعت عوامل ثانوية كثيرة أن تقوي جانب الجبر وانكار حرية ارادة الانسان من تلك العوامل :

أ ـ العامل السياسي:

كثير من الحكام الجبارين المعاندين الذين سعوا لإطفاء مشاعل ثورة المستضعفين لادامة حكمهم غير المشروع، كانوا يتعهدون فكرة الجبرية ويشيعونها ، قائلين: إننا لانملك حرية الاختيار، وإن يد القدر وجبرية التاريخ تمسك بمصائرنا ، فاذا كان بعض امير اً، وبعض اسير اً ، فذاك حكم القضاء والقدر والتاريخ .

لايخفى مالهذا الاتجاه في التفكير من تاثير في تخدير طبقات الشعب وفي تاييد استمرار السياسات الاستعمارية ، بينما الحقيقة هي إن مصائرنا ، عقلا وشرعاً ، في ايدينا ، وإن القضاء والقدر بمعنى الجبر وسلب الارادة لاوجود له ، فالقضاء والقدر الالهي قد تعين بحسب حركتنا وارادتنا وايماننا وسعينا .

ب ـ العامل النفسي:

هناك اشخاص ضعفاء وكسالى غالباً مايكون الاخفاق نصيبهم في الحياة ، ولكنهم لايريدون الاعتراف بهذه الحقيقة المرة، وهي ان كسلهم أوأخطاءهم هي السبب في اخفاقهم ،لذلك ،ولكي يبرئوا أنفسهم ، يتمسكون باذيال الجبرية، ويضعون اوزارهم على عاتق مصيرهم الاجباري ، لعلهم بهذا يعثرون على وسيلة تمنحهم شيئاً من الهدوء الكاذب ،فيعتذرون قائلين :ماذا نفعل ؟ لقد حيك بساط حظنا منذ اليوم الاول ،باللون الاسود ، وليس بمقدور مياه زمزم وكوثر ان تحيل سواده بياضاً . اننا كتلة من الهمة والاستعداد،ولكن مع الاسف ، ان الحظ لايحالفنا !

ج ـ العامل الاجتماعي:

يحب بعض الناس ان يكونوا احراراً في التمتع واشباع اهوائهم وارتكاب ماتشاء لهم رغباتهم الحيوانية ان يرتكبوا من الجرائم والآثام ،وفي الوقت نفسه يقنعون أنفسهم بأنهم ليسوا

مذنبين ،ويخدعون المجتمع بأنهم أبرياء . وهنا يلجأون الى عقيدة الجبرية ، فيسوغون مباذلهم بقولهم بأنهم في أعمالهم ليسوا مختارين !

ولكننا ،بالطبع ،نعلم إن كل هذا كذب محض ،بل إن الذين يتذرعون بهذا العذر يؤمنون بانه واه ولا اساس له ، إلاّ أن انغماسهم في اللذائذ الزائلة لاتسمح لهم باعلان هذه الحقيقة .

لذلك لابد لنا في سعينا لبناء المجتمع بناءً سليماً أن نكافح هذه المعتقدات الجبرية والمقولات عن المصائر الاجبارية التي يستغلها المستعمرون ، وتتخذ وسيلة لتسويغ الاخفاق الكاذب وإفشاء الفساد في المجتمع .

* * *

فكر وأجب:

١- ماالفرق بين " الجبر " و" التفويض " ؟

٢- ماهي أهم ادعاءات الجبريين ؟

٣- مارأيك في تأثير المحيط والثقافة والوراثة؟

٤- ماهي العوامل "السياسية" و"النفسية" و" الاجتماعية " التي تؤيد عقيدة الجبريين ؟

٥- ماهو واجبنا تجاه هذه العوامل ؟

* * *

الدرس السابع

أجلى دليل على حرية الارادة والاختيار

١ــ الوجدان العام في البشر يدحض الجبرية:

على الرغم من ان الفلاسفة والعلماء اللاهوتيين اكثروا البحث في مسألة حرية ارادة الانسان، ولهم على ذلك أدلة مختلفة. ولكننا لكي نختصر الطريق، نتناول أوضح الأدلة على حرية ارادة الانسان، وهو الوجدان الانساني العام:

إذا استطعنا ان ننكر كل شيء، فليس بامكاننا ان ننكر هذه الحقيقة، وهي إن جميع المجتمعات البشرية، سواء أكانت تعيد الله أم كانت ملحدة، شرقية أم غربية، قديمة أم حديثة، غنية أم فقيرة، متقدمة أم متخلفة، ومهما تكن ثقافتها، فانها جميعاً وبدون استثناء، تؤيد ضرورة وجود "قانون" يسود المجتمعات البشرية. أي إن الفرد مسؤول أمام القانون، وإن الذي يخالف القانون يجب أن "يعاقب" بشكل ما.

أي إن سلطة القانون، ومسؤولية الافراد، وعقابية المخالفات أمور يعتقد بها جميع سكان العالم، اللهم إلا الأقوام المنحطة

التي لم تعترف بهذه المسائل الثلاث .

ان هذه المسألة التي نطلق عليها اسم (الرأي العام العالمي) تعتبر أوضح دليل على حرية ارادة الانسان وتمتعه بحرية الاختيار .

كيف يمكن أن نصدق أن انساناً يكون مجبراً في ارادته وعمله ولا يملك حرية في الاختيار ، ثم نعتبره مسؤولاً أمام القانون ، فاذا نقض القانون اتينا به الى قاعة المحكمة واستنطقناه ، لماذا فعل هذا ، ولماذا لم يفعل ذاك ؟ وبعد ان تثبت خروجه على القانون نحكم بسجنه أو باعدامه .

هذا أشبه بجلبنا الصخور ، التي تتهاوى من الجبال فتقتل الناس في الطرقات ، الى المحكمة لمحاكمتها!

صحيح ان الانسان يختلف كثيرا في الظاهر عن صخرة من الصخور ، ولكننا اذا انكرنا حرية ارادة الانسان ، فلن يكون لهذا الاختلاف الظاهري أي أثر ، فكلاهما يكونان تحت تأثير عوامل قهرية مجبرة ، فالصخرة المحكومة بقانون الجاذبية تسقط على الناس في الطريق ، والانسان المجرم او القاتل يكون تحت تاثير عوامل قهرية مجبرة اخرى . فبناء على عقائد الجبريين ، ليس هناك أي فرق بين هذين من حيث النتيجة ، فكلاهما لم يقم بما قام به باختياره ، فلماذا يحكم احدهما دون الآخر ؟

إننا على مفترق طريقين : أمّا أن نقول بخطأ الرأي العام في العالم ، ونعتبر كل القوانين والمحاكم ومعاقبة المجرمين عبثاً في عبث ، بل ظلما فادحاً ، وإمّا أن ننكر مايذهب اليه الجبريون واتباعهم .

لاشك إن الرأي الاخير هو الأرجح !

وإنه لمن الغرابة بمكان أن نجد الذين ينحون في عقائدهم وافكارهم الفلسفية منحى الجبرين ويوردون الأدلة عليها ، ينحازون

الى جانب حرية الارادة عند دخولهم في معترك الحياة ! فهم إذا اعتدى احد على حقوقهم أو ألحق بهم ضرراً وأذى ، يرون أنه جدير بالتوبيخ والعتاب ، وقد يشكونه الى المحاكم ، بل ربما ثاروا وهاجوا ولم يهدأوا حتى ينال غريمهم العقاب القانوني !

حسن، فاذا كان الانسان حقاً غير مختار فيما يفعل، وان مايفعله ليس بارادته ، فلم كل هذا التوبيخ والعتاب والشكوى والهياج؟

على كل حال ، إن هذا الرأي العام لعقلاء العالم دليل حي على حقيقة كون الانسان يؤمن في اعماقه بحرية الارادة ، وكان دائماً كذلك ، بل إنه لايستطيع أن يحيا يوماً واحداً بخلاف ذلك ، وبغير أن يدير عجلة حياته على محور هذا الايمان .

يقول الفيلسوف الاسلامي العظيم (الخواجه نصير الدين الطوسي) في بحث الجبر والتفويض ، في عبارة قصيرة :

" .... والضرورة قاضية باسناد أفعالنا إلينا "[١]

٢ ــ تضاد منطق «الجبرية» ومنطق «الدين».

ان الكلام المذكور آنفاً كان على تضاد الجبرية مع الرأي العام عند عقلاء العالم، سواء الذين يدينون بدين والذين لادين لهم اطلاقا .

إلاّ أن هناك دليلا آخر حديث عن وجهة النظر الدينية تبطل مذهب الجبرية ، وهو إن الاعتقادات الدينية لايمكن ان تنسجم مع المذهب الجبرى ، اذ ان القبول به يصيب العقائد الدينية بالعطب والشلل .

كيف يمكن القول بعدالة اللّه ـ وهي التي اثبتناها بجلاء في الدروس السابقة ـ ثم نقول انها لاتناقض العقيدة الجبرية ؟ كيف يمكن القول بان اللّه يجبر انساناً على القيام بعمل ، ثم يعاقبه على مافعل ؟ ليس هذا من المنطق في شيء!

وبناء على ذلك ، اذا قبلنا بالمدرسة الجبرية ، لايكون

هناك معنى للقول بوجود " ثواب" و "عقاب" و "جنة" و "نار" . كما لايكون هناك مكان لمفاهيم مثل " صحيفة الاعمال " و " السؤال" و " الحساب الالهي" و " ماجاء في القرآن من ذم المسيئين والثناء على المحسنين" ، وذلك لأن رأى الجبريين يقول : لاالمحسن كان مختاراً عندما أحسن ، ولاالمسيء كان مختاراً عندما أساء .

ثم إننا إذا تعاضينا عن كل ذلك ، فاننا عند أول اتصال لنا بالدين نواجه " التكليف والمسؤولية" .ولكن أيمكن أن نكلف شخصا بأي تكليف ونحمله مسؤولية ذلك اذا لم يكن له الخيار فيما يفعل ؟

أيجوز أن نأمر شخصاً في اصابعه ارتعاش لاارادي بان لايفعل ذلك ؟ أم هل يجوز أن نطلب من شخص يتدحرج على سفح جبل شديد الانحدار أن يتوقف ولاينحدر ؟

ولهذا قال امير المؤمنين علي عليه السلام يصف مايقوله الجبريون :

" .. تلك مقالة اخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمن وحزب الشيطان " !

* * *

فكر وأجب:

١- ماهو أوضح دليل على بطلان الجبر ؟

٢- اشرح الرأي العام العالمي حول مبدأ حرية الارادة .

٣- هل مؤيدو الجبرية يلتزمون الجبرية في التطبيق العملي ؟

٤- هل ينسجم الاعتقاد بالجبر مع مبدأ العدالة الالهية؟ لماذا ؟

• ـ كيف تكون حرية الارادة هي أساس القبول بالتكاليف والمسؤوليات ؟

* * *

الدرس الثامن

مامعنى " الأمر بين الأمرين " ؟ المدرسة الوسط

١ــ «التفويض» في قبال «الجبر»

بازاء الاعتقاد بالجبر ،الذى يقع في جانب"الافراط" ،هنالك اعتقاد آخر باسم "التفويض " ،ويقع في جانب "التفريط " .

يرى الذين يعتقدون بالتفويض ان اللّه قد خلقنا وترك كل شيء بيدنا ولايعود أي دخل له في أعمالنا وأفعالنا ،وبناء على ذلك يكون لنا الحرية كاملة والاستقلال التام فيما نفعل بلامنازع !

لاشك في إن هذا لايتفق ومبدأ التوحيد ،إذ ان التوحيد قد علمّنا أن كل شيء ملك للّه ، ومامن شيء يخرج عن نطاق حكمه ، بما في ذلك أعمالنا التي نقوم بها مختارين وبمل حرية ارادتنا ، وإلاّ فذلك شرك .

وبعبارة أوضح : ليس بالامكان القول بوجود إلهين ،أحدهما هو الاله الكبير ،خالق الكون ،والآخر الاله الصغير ،أي الانسان الذي يعمل مستقلا وبكل حرية بحيث ان اللّه الكبير لايستطيع أن يتدخل في أعماله !

هذا ، بالطبع ، شرك وثنائية في العبادة ، أو إنه تعدد في المعبود ، فعلينا إذن أن نعتبر الانسان صاحب اختيار فيما يفعل، وفي الوقت نفسه نؤمن بأن اللّه حاكم عليه وعلى أعماله .

٢ ـ المدرسة الوسط :

ان النقطة المهمة والدقيقة هنا هي أن لايختلط علينا الأمر فنحسب هذين الأمرين متناقضين . الدقة في الأمر هي إننا نؤمن بـ (عدالة) اللّه ايماناً تاماً ، وأن نؤمن في الوقت نفسه بحرية عباد اللّه ومسؤوليتهم ، وبـ (التوحيد) وشمول حكمه عالم الوجود كله وهذا هو مايعبر عنه أنه (الأمر بين الأمرين) ، أي الامر الوسط بين معتقدين متطرفين غير صحيحين .

ولما كان هذا الموضوع على شيء من التعقيد ، فسنورد مثالاً توضيحياً :

أفرض أنك تقود قطاراً كهربائياً في سفرة . فلابد أن يكون هناك سلك كهربائي قوي يمتد فوق القطار ، تنزلق عليه الحلقة المتصلة بالقطار ، فيتحرك هذا بانتقال طاقة كهربائية قوية من محطة لتوليد الكهرباء الى ماكنة القطار باستمرار ، بحيث لو انقطع التيار لحظة واحدة لتوقف القطار فوراً .

بديهي انك قادر أن تتوقف أثناء الطريق حيثما تشاء، ولك ان تزيد من سرعة القطار او أن تخفف منها . ولكنك على الرغم من حريتك هذه ، فان الشخص القائم على ادارة محطة توليد الكهرباء قادر في اية لحظة أن يوقف حركتك ، وذلك لان قدرتك كلها تعتمد على تلك الطاقة الكهربائية التي يتحكم فيها شخص غيرك .

إذا دققنا النظر في هذا المثال نجد انه على الرغم من حرية سائق القطار في الحركة والسكون ، إلاّ أنه يقع في قبضة شخص آخر وأن هذين الأمرين لايتعارضان .

مثال آخر:

أفرض إن شخصاً أصيبت اعصاب يده بالشلل على أثر حادث مؤسف . فلايستطيع تحريكها . ولكننا اذا اوصلناها بطاقة كهربائية خفيفة أمكن ايصال الحرارة اليها بحيث تتمكن من التحرك .

فاذا ارتكب هذا الشخص بهذه اليد جريمة . فقتل شخصاً . أوصفع أحداً . فان مسؤوليته ذلك لاشك تكون عليه . لانه كانت له القدرة والارادة . وان الشخص اذا ملك (القدرة والارادة) يكون مسؤولاً عن أعماله .

ولكن في هذا المثال فان الشخص الذي يوصل القوة الكهربائية الى يد الجاني ليولّد فيها القدرة يكون هو المسيطر الحاكم عليه . في الوقت الذي يكون فيه هذا مالكا لحرية ارادته واختياره .

فلنعد الآن الى موضوعنا :

لقد وهبنا الله القدرة والقوة . ومنحنا العقل والذكاء . وهي طاقات لاينقطع وصولها إلينا من الله . ولو توقف لطف الله عنا لحظة واحدة وانفصمت رابطتنا به لقضي علينا فناء تاماً .

إننا إذا كنا قادرين على إنجاز عمل . فقدرتنا هي التي وهبها الله لنا ومازالت تصل إلينا باستمرار غير منقطع . بل إن حرية ارادتنا ايضا من عنده . أي انه هو الذي ارادنا ان نكون احراراً في ارادتنا . لكي نواصل مسيرتنا نحو التكامل بهذه الهبات الالهية .

بناء على ذلك . فاننا في الوقت الذي نملك فيه حرية ارادتنا واختيارنا . نظل تحت سيطرة القدرة الإلهية ولايمكن أن نخرج من نطاق حكمه . إننا في لحظة القدرة والقوة نكون مرتبطين به تعالى . ولايمكن أن نكون شيئاً بدونه . هذا هو معنى (لا أمر بين الأمرين) . إذ إننا بهذا لانكون قد وضعنا احداً على قدم المساواة

مع الله ليكون شريكا له ،ولانكون قد اعتبرنا عباد الله مجبرين في أعمالهم لنقول إنهم مظلومون ، فتأمل !

لقد تعلمنا هذا الدرس من مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فعندما كان الناس يسألونهم عما اذا كان هناك سبيل بين (الجبر والتفويض) كانوا يقولون : نعم ،أرحب مما بين السماء والارض.[٣]

٣ـ القرآن ومسألة الجبر والتفويض:

يوكد القرآن المجيد في هذه المسألة على حرية ارادة الانسان بجلاء ووضوح في المئات من الآيات التي تصرح بحرية ارادة الانسان.

أ ـ جميع الآيات التي تتناول الأوامر والنواهي والفرائض تدل على حرية ارادة الانسان في اختيار سبيله ،اذ لو كان الانسان مجبراً في اعماله لما كان ثمة معنى في الأمر والنهي .

ب ـ جميع الآيات التي تذم المسيئين وتمدح الصالحين دليلاً على حرية الارادة ،وإلاّ فلا معنى في الذم والمدح اذا كان الانسان مجبراً .

ج ـ جميع الآيات التي تتحدث عن الحساب يوم القيامة ومحاكمة الناس في تلك المحكمة،ثم الحكم بالعقاب أوبالثواب،أي النار والجنة ،إن هي إلاّدليل على حرية الانسان في مايعمل ، لأنه بالفرض والاجبار لايكون هناك معنى للمحاسبة والمحاكمة،ويكون إنزال العقاب بالمسيئين ظلماً محضاً .

د ـ جميع الآيات التي تدور حول :

" كل نفس بما كسبت رهينة " .

(المدثر : ٣٧)

و" وكل امرئ بما كسب رهين ".

(الطور : ٢١).

تدل دلالة واضحة على حرية ارادة الانسان .

هـ - ثمة آيات مثل :

" إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفورا ".

(الدهر : ٣)

واضحة الدلالة على هذا الامر .

إلاّأن هناك آيات في القرآن المجيد تعتبر دليلا على "الأمر بين الامرين " ، غير ان بعض الجهلاء يخطئون فهمها فيرونها دليلا على (الجبر) منها :

" وما تشاءون إلاّأن يشاء اللّه " .

(الدهر : ٣٠).

من الواضح إن هذه الآية وأمثالها لاتعني تجريد الانسان من حرية الاختيار ،بل تريد أن تؤكد للانسان إنه في الوقت الذي يكون فيه تام الحرية والاختيار ، لايخرج عن أمر اللّه ، كما مربنا توضيحه .

* * *

فكر وأجب :

١- ما معنى " التفويض"؟وما النقيصة الكامنة فيه ؟

٢- اشرح بعبارات جلية مبدأ "الأمر بين الأمرين " الذي تعلمناه من ائمة اهل البيت عليهم السلام . أيّد شرحك بمثال واضح.

٣- ماذا تقول الآيات التي تتحدث عن مسألة الجبر والتفويض

٤- اذا نحن قبلنا بعقيدة الجبر ،فما يكون من أمر يوم القيامة والجنة والنار والحساب؟

٥- هل الآيات التي تشبه : **" وماتشاءون إلاّأن يشاء اللّه"** دليل على الجبر ؟

الدرس التاسع

الهداية والضلال بيد الله

١ــ انواع الهداية والضلال:

هذا مسافر غريب بيده عنوان ،فيلتقيك ويسألك أن تدلّه ،إن أمامك طريقين لدلالته وإرشاده الى مايريده :

الأول هو ان تصحبه بنفسك حتى توصله الى مقصده ، ثم تودعه وتذهب ،وهذا هو الكمال في فعل الخير .

والثاني هو أن تشير بيدك الى حيث ينبغي أن يتوجه وتريه مختلف العلائم والمعالم في طريقه الى حيث يريد .

في كلتا الحالتين تكون انت قد " هديته " الى هدفه ،ولكن مع اختلاف الحالتين ،فالحالة الثانية هي " إراءة الطريق" والاولى هي "إيصال الى الهدف" .والهداية قد وردت في القرآن الكريم وفي أخبارنا الاسلامية بكلا المعنيين.

واحياناً يكون للهداية جانبها (التشريعي) فقط،أي إنها تتحقق عن طريق التشريعات والقوانين ،وقد يكون لها جانبها "التكويني" ،وهو " هداية "النطفة في طريق الخلق باتجاه تكوين

الانسان الكامل الخلق . وقد ورد هذان المعنيان في القرآن والاخبار ايضا . بمعرفتنا انواع الهداية (ويقابلها الضلال) نعود الى الموضوع:

نقرأ في كثير من الآيات أن الهداية والضلال من عمل اللّه . لاشك ان " اراءة الطريق "تكون من قبل اللّه عن طريق ارساله الانبياء والرسل . وانزاله الكتب السماوية لكي يدل الانسان على الطريق.

غير ان "الايصال الى الهدف"قسرا لايأتلف ومبدأ حرية الاختيار . ولكن بما أن اللّه يضع تحت تصرفنا جميع الوسائل اللازمة للوصول الى الهدف ،وأنه هو الذي يشملنا بالتوفيق في سيرنا في هذا الطريق :فان هذه الهداية تكون ايضا ،بهذا المعنى ،من قِبَل اللّه ،أي عن طريق تهيئة الوسائل واعداد المقدمات ووضعها في متناول الانسان .

٢ــ سؤال مهم:

هنا يظهر هذا السوال المهم،فنحن نقرأ في القرآن الكريم:

" فيضل اللّه من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم " .

(ابراهيم : ٤) .

بعض الناس يغفلون عن معاني آيات القرآن وماجاء في تفسيرها وعلاقة بعضها ببعض ،فيبادرون حالما يقرأون هذه الآية الى الاعتراض ،قائلين :مادام اللّه هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء فما ذنبنا نحن ؟

القضية المهمة هي اننا يجب دائماً ان نأخذ بنظر الاعتبار علائق الآيات فيما بينها حتى نتعرف على مفاهيمها الحقيقية.هنا نورد لك نماذج اخرى من الآيات الخاصة بالهداية والضلال لكي نضعها الى جانب الآية المذكورة ،ثم ستنتج منها النتيجة

المطلوبة:

وفي الآية ٢٧ من سورة ابراهيم نقرأ :

" ويضل اللّه الظالمين " .

وفي الاية ٣٤ من سورة غافر نقرأ :

" كذلك يضل اللّه من هو مسرف مرتاب ".

وفي الآية ٦٩ من سورة العنكوت نقرأ :

" والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ".

وهكذا نلاحظ أن (إشاءة) اللّه ليست بغير حساب ، فهو لايوفق أحداً لهدايته ،ولاهو يسحب هدايته من أحد ،بغير حساب.

فالذين يجاهدون في سبيل اللّه ، ويتقدمون ليصارعوا المشكلات ،ويجالدون أهواءهم النفسية، ويقفون بصلابة في وجه الاعداء الخارجيين ،فهو قد وعدهم بهدايته ،وهذا هو العدل بعينه.

أما الذين يقيمون صرح (الظلم والجور) ويسيرون في طريق "الاسراف والشك "وايجاد الريبة والتردد "فان اللّه يحرمهم من التوفيق الى الهداية ،وتصبح قلوبهم مظلمة سوداً بسبب أعمالهم تلك ،فلايكون من نصيبهم الوصول الى منزل السعادة .وهذا هومعنى إن اللّه يضل من يشاء ،وذلك بوضعنا امام نتائج أعمالنا ،وهو العدالة بعينها ايضاً ،فتأمل !

٣ــ العلم الازلي سبب العصيان:

آخر نقطة اود بحثها في موضوع " الجبر والتفويض " هي الذريعة التي يتذرع بها بعض الجبريين ،وهي علم اللّه الازلي.

يقولون :هل يعلم اللّه إن فلاناً يقوم في الساعة الفلانية بجريمة قتل ،أويشرب الخمر ؟ إذا قلت : لايعلم فقد أنكرت علم اللّه . وإذا قلت : يعلم ،فلا بد لهذا الشخص ان يفعل مافعل ،وإلاّ ظهر علم اللّه مغايراً للواقع .

ولذلك فلكي يمكن تحقق علم الله ،فان العصاة مجبرون على ارتكاب خطاياهم .كما أن الصالحين مجبرون على القيام باعمالهم الصالحة !

إن الذين اتخذوا هذه الذريعة ليخفوا وراءها جرائمهم وآثامهم قد فاتتهم في الواقع حقيقة واحدة، وهي اننا نقول ان الله عالم منذ الازل باننا سنقوم بارادتنا وبملء اختيارنا بالاعمال الصالحة أوالطالحة،اي إن اختيارنا وارادتنا معلومان عند الله، وهذا يعني إن إجبارنا يعني إن علم الله جهل ،فتأمل !

اسمحوا لي ان اجسد هذا الموضوع ببعض الاسئلة : لنفرض أن معلماً يعرف إن الطالب الفلاني الكسلان سوف يسقط في آخر السنة ،وانه واثق من ذلك كل الثقة استناداً الى مالديه من خبرة وتجارب طويلة .

فهل يحق لهذا الطالب ،اذا سقط في النهاية ،ان ياخذ بخناق هذا المعلم بحجة ان تنبؤه ومعرفته أجبرته على السقوط؟

وإذا ارتفعنا في أمثلتنا .نقول :لنفرض ان هناك شخصاً معصوماً من الخطأ .وان هذا الشخص قد علم بان حدثا جنائياً سوف يقع في اليوم الفلاني .فيرى من المصلحة أن يتدخل في الأمر ،فهل علم هذا الشخص المعصوم يرفع المسؤولية عن المجرم ويعتبره مجبراً على ارتكاب ماارتكب ؟

مرة أخرى أفرض انهم أخترعوا جهازاً يتنبأ بحدوث الحوادث قبل وقوعها بساعات .فتخبر بأن فلانا سوف يقوم بملء اختياره بالعمل الفلاني في الساعة الفلانية .فهل هذه المعلومات تكون سبباً في اعتبار الشخص مجبراً على أن يفعل مايفعل ؟

الخلاصة هي إن علم الله لايجبر احداً على القيام بعمل ابداً .

فكر وأجب:

١ـ ماانواع الهداية ؟ إشرحها .

٢ـ أذكر بعض الآيات التي تنسب الهداية والضلال الى الله

٣ـ كيف تفسر الهداية والضلالة الالهيتين؟

٤ـ مامعنى علم الله الأزلي ؟

٥ـ هل يجردنا العلم الأزلي من حرية ارادتنا ويرفع عنا المسؤولية ؟ إضرب لذلك مثلا .

* * *

الدرس العاشر

العدل الالهى ومسألة الخلود

نقرأ في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تتحدث عن إن عقاب بعض الكفار والآثمين هو (الخلود) في العذاب والنار .

الآية ٦٨ من سورة التوبة تقول :

" وعد اللّه المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها . "

وفيما يلي من تلك الآية نفسها يعد اللّه الرجال والنساء بما يلي :

" وعد اللّه المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها " .

هنا يبرز أمامنا السؤال التالي : كيف يجوز أن يعاقب شخص ارتكب إثماً خلال عمره ، الذي قد لايتجاوز ثمانين سنة اومئة، فيعاقب على ذلك بالبقاء في العذاب ملايين السنين أوأكثر ؟

هذا التساؤل ليس مهماً ، بالطبع ، بالنسبة للثواب ، اذ ان بحر رحمة اللّه واسع ، وكلما ازداد الثواب كان ذلك أدل على رحمته

وفضله . ولكن بالنسبة للاعمال السيئة ،كيف يمكن ان يعاقب المرء على سيئات محدودة بعذاب خالد ؟ كيف يمكن لهذا ان ينسجم مع العدالة الإلٰهية ؟ألا يجب أن يكون هناك نوع من التعادل بين الجريمة والعقاب؟

الجواب:

للوصول الى جواب شاف ونهائي لهذا السوال ينبغي أن نلاحظ الأمور التالية :

أ- ان العقوبات يوم القيامة لاتشبه كثيرا العقوبات في هذه الدنيا ،كأن يرتكب احدهم في هذه الدنيا جريمة السرقة مثلا فيعاقب بالسجن مدة معينة ،بل ان عقوبات يوم القيامة اكثر ماتكون بهيئة آثار اعمال الانسان وخصائصها .

وبعبارة اوضح ، ان العذاب الذي يعاني منه المذنبون في عالم الآخرة هو نتيجة لأعمالهم التي تصيبهم .يقول القرآن في تعبير صريح :

" فاليوم لاتظلم نفس شيئاً ولاتجزون إلا ماكنتم تعملون "

(يس : ٥٤)

ولنضرب مثلا بسيطاً يجسد هذه الحقيقة :

يندفع شخص مافي تعاطي المخدرات والمشروبات الكحولية، وكلما نصحوه بترك هذه المواد السامة التي تضر بمعدته وتضعف قلبه وتحطم أعصابه ، لم يجدوا عنده أذنا صاغية ،بل يمضي بضعة اسابيع أوشهور في الاستمتاع الموهوم بهذه المواد القاتلة حتى تظهر عليه آثار قرحة المعدة وانهيار الاعصاب وامراض القلب. ويبقى بعدذلك طوال عمره يعاني الآلام من تلك الامراض ،يئن منها ليله ونهاره .

فهل يمكن أن نعترض هنا فنقول إن هذا الشخص الذي لم يذنب سوى لبضعة اسابيع أواشهر ، كيف يظل يعاني بقية عمره ولسنوات عديدة تلك الآلام ويتحمل كل ذلك العذاب ؟ لاشك إن الجواب سيكون فوراً : تلك هي نتائج أعماله !وحتى لو اعطي عمر نوح أواكثر وعاش آلاف السنوات ،فانك كلما رأيته يتألم من تلك الامراض قلت : هذا العذاب هوالذي أنزله بنفسه بمحض ارادته وكامل وعيه .

إذن " أكثر " عقوبات يوم القيامة من هذا القبيل ،وعليه فلا يبقى اى مجال للاعتراض على عدالة الله .

ب - من الخطأ أن يظن بعضهم ان مدة العقاب يجب أن تتناسب مع مدة الذنب ، لان العلاقة بين الذنب وعقابه ليست علاقة زمنية ،بل تتعلق بكيفية الذنب ونتائجه .

فقد يقتل شخص رجلاً بريئاً في لحظة واحدة .فيحكم عليه بالسجن المؤبد حسب قوانين بعض البلدان . فهنا نلاحظ أن زمن الذنب لم يتجاوز بضع لحظات ،بينما العقاب يمتد عشرات السنين. ومع ذلك لايعترض احد على ذلك بأنه ظلم وذلك لان القضية هنا ليست قضية دقائق وساعات وأشهر وسنوات ، بل هي قضية كيفية الجرم ونتائجه .

ج - " الخلود " في النار والعقاب والأبدى إنمايحيق بالذين يغلقون أمام انفسهم جميع منافذ النجاة .ويغرقون عن عمد ووعي في الفساد والكفر والنفاق ، بحيث إن ظلام الإثم يغطي جميع أرجاء وجودهم حتى يصبحوا قطعة من الكفر والعصيان .

وفي هذا يقول القرآن في تعبير رائع :

" بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته

فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " .

(سورة البقرة، الآية ٨١).

وهؤلاء هم الذين قطعوا كل صلة لهم بالله ،واغلقوا في وجوههم جميع نوافذ النجاة والسعادة . انهم اشبه بالطائر الذي يقوم عمداً بكسر اجنحته واحراقها ، فيمسي مجبراً على المكوث على الارض دائماً ،محروماً من التحليق في اجواء السماء العالية.

اذا اخذنا النقاط الثلاث المذكورة بنظر الاعتبار اتضح لنا ان قضية الخلود في العذاب الأبدي الذي يكون من نصيب بعض المنافقين والكفار لاتناقض مبدأ العدالة ، لان الخلود في العذاب جاء نتيجة لاعمالهم هم ، على الرغم من ان الانبياء والرسل قد أبلغوهم أن لتلك الاعمال نتائج مرة ومشؤومة .

لاريب في ان الذين لم تصلهم دعوة الانبياء ،فارتكبوا ماارتكبوا من باب الجهل ،فان عقابهم لايكون بتلك الشدة .

ولابد من القول بانه يستفاد من الآيات والاخبار الاسلامية ان بحر رحمة الله من السعة والانفتاح بحيث انها تغسل بامواجها ذنوب الكثيرين من الآثمين :

فبعض بالشفاعة..

وبعض بالعفو والغفران ،

وبعض لما قاموابه من أعمال صالحة صغيرة ،ولكن الله بعظمته يثيبهم عليها ثوابا عظيما ،

وبعض آخر يقضون فترة العقاب ليتطهروا في بوتقة التصفية الالهية ، ثم يعودون الى كنف الرحمة الالهية .

ولايبقى إلاّ أولئك المعاندون ، اعداء الله ، الذين أصروا على الظلم والفساد والنفاق حتى استغرقهم ظلام كفرهم وضلالهم كليا .

■ ■ ■

فكر وأجب:

١ـ كيف يظن بعضهم أن الخلود في النار يتعارض مع العدل الالهي ؟

٢ـ هل تشبه عقوبات العالم الآخر العقوبات في هذه الدنيا؟ فان لم تكن ، فكيف هي ؟

٣ـ هل تقتضي العدالة أن يكون هناك تناسب بين فترة الإثم وفترة العقاب ؟

٤ـ من هم الذين يكون عقابهم الخلود في النار ؟

٥ـ من هم الذين يشملهم العفو الالهي ؟

الهوامش

أ ـ كتاب " تجربة العقائد " في بحث الجبر والاختيار .

٢ ـ " اصول الكافي " ج ١ ص ١١٩ باب " الجبر والقدر " .

٣ ـ المصدر نفسه ، ج١ص١٢١ ،باب (الجبر والقدر والامر بين الامرين) .

الفهرست

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٥
الدرس الاول	
ماهو العدل ؟	٧
ماهي العدالة ؟	٩
الدرس الثاني	
دلائل عدالة اللّه	١٣
ماهو مصدر الظلم ؟	١٤
القرآن وعدالة اللّه	١٥
الدعوة الى العدل	١٦
الدرس الثالث	
فلسفة الكوارث والآفات	١٩

الحكم النسبي وقلة المعرفة ١٩
الحوادث المنغصة والتحذيرات ٢٢

الدرس الرابع

حكمة المنغصات في حياة الانسان ٢٥
الانسان يتربى في احضان المشكلات ٢٥
المشكلات سبب العودة الى اللّه ٢٧

الدرس الخامس

عودة الى الحكمة في الآفات والكوارث ٢٩
المشكلات المصطنعة ٣١

الدرس السادس

الجبر والفويض ٣٥
مصدر الاعتقاد بالجبرية ٣٥
النقطة الرئيسة في خطأ الجبريين ٣٦
العامل الاجتماعي والسياسي في المذهب الجبرى ٣٧
العامل السياسي ٣٨
العامل النفسي ٣٨
العامل الاجتماعي ٣٨

الدرس السابع

اجلى دليل على حرية الارادة والاختيار ٤١
تضاد منطق " الجبرية " ومنطق " الدين " ٤٣

الدرس الثامن

مامعنى " الامر بين الامريين " ؟ المدرسة الوسط ٤٧
المدرسة الوسط ٤٨
مثال آخر ٤٩
القرآن ومسالة الجبر والتفويض ٥٠

9088

الدرس التاسع

الهداية والضلال بيد اللّه ٥٣
انواع الهداية والضلال ٥٣
سؤال مهم ٥٤
العلم الازلي سبب العصيان ٥٥

الدرس العاشر

العدل الالهي ومسألة الخلود ٥٩
الهوامش ٦٥

صندوق البرید ۱۳۶۱ ـ ۱۵۸۱۵
ایران ـ طهران

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
SEPT-OCT 1992
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 088635303